خطبة صلاة الجمعة 12/ 7/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الأدب مع النفس)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9، 10]، قال ابن كثير في "تفسيره": (قد أفلح من زكّى نفسه وطهّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل).

أخرج الترمذي بإسناده عن سعيد بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا من نَحْلٍ أفضلَ من أدبٍ حَسَنٍ»**.

وأخرج عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المؤمِنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ يبْغضُ الفَاحِشَ البَذيء»**.

عنوان خطبة اليوم: **الأدب مع النفس**

أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلةٍ تلو الأخرى، تجتمع حيناً وتتتابع حيناً آخر، بعض هذه المنازل يمر بها السالك فيقطعها ثم يتجاوزها إلى غيرها، وبعضها يمر بها ويصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه، ومن منازل السائرين التي يصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه ولو تركها لرُدَّ من حيث جاء (منزلة الأدب).

قال الحسن البصري: "كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثمّ السنتين".

وقال سفيان الثوري: "كان الرجل لا يطلب العلم حتى يتأدب ويتعبد قبل ذلك".

وقال مالك بن أنس: "كانت أمي تُعَمِّمُني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة الرأي فتعلّم من أدبه قبل عِلمه".

وقال رويم لابنه: "يا بني اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً".

الْأَدَبِ: هُوَ إِصْلَاحِ الأقوال والأفعال والأحوال وفق ما جاء في القرآن والسنة وتعارفه أولو الألباب.

والأدب أربعة فأدب مع الله، وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم، وأدب مع الخلق، وأدب مع النفس.

ولئن تحدثت الخطب الماضية عن الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والأدب مع الخلق، فإن خطبة اليوم تتحدث عن الأدب مع النفس.

أيها الإخوة:

يفلح المرء بتزكية نفسه وتأديبها، ويخيب بإهمالها واتباعه هواها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9، 10].

توسوس له بما لا يليق ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: 16]، وتدعوه إلى ما لا يحل ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: 53] وتسول له الشرور ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96] وتطَوِّع له الآثام ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30]، وتدعوه إلى الشح بالخير ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

فإن أدّبها ونهاها عما أرادت ربحها وأسعدها ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40، 41]، وإن أطاعها فيما أرادت ظلمها وأهلكها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: 1]، إلا أن يتوب مما عمل ويستغفر مما فعل ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110].

من يتزكى يتزكى لها ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18]، ومن يشكر يشكر لها ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12]، ومن يعمل صالحاً فلها ومن يسيء فعليها ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: 15]، ومن اهتدى فلها ومن ضل فعليها ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: 108].

والمرء في ذلك كله يعلم نفسه ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14]، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14].

والسعيد كل السعيد من علم أن النبي صلى الله عليه وسلم أولى به من نفسه، فقدّمَ قوله على قوله، وأمره على أمره، ونفسه على نفسه ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6].

ويسعني في خطبة الأدب مع النفس أن أعرض عليكم آداباً أربعة مع النفس؛ ليجتهد كل منا بتحصيلها، من كانت فيه فليحمد الله وليتمسك بها، ومن لم تكن فيه أو بعضُها فليسعَ بتحصيلها.

الأدب الأول: **مراقبة الله تعالى**:

أعظم آداب المرء مع نفسه أن يلاحظ أن الله ناظر إليه، مطلع عليه في جميع الأحوال، يسمع ويرى، فيشتغلَ بذكره بقلبه وحاله دائماً، ماشياً كان أو قاعداً أو واقفاً أو مضطجعاً أو مشتغلاً بصنعة، بمعنى أن يجري لفظ الجلالة على قلبه؛ حتى يصير ذكر الله أنيسَ نفسه ونشيدَ روحه، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]، جاء في تفسير التستري: (حقيقة الذكر: تحقيق العلم بأن الله تعالى مشاهدك، وتراه بقلبك قريباً منك، وتستحي منه ثم تؤثره على نفسك في أحوالك كلها).

فالذاكر يستقبله حرام، فيذكر الله تعالى، ويعلم أنه مطلع عليه، فيجتنب ذلك الحرام.

أحيل إلى التقاعد موظّفٌ في دائرة حكومية يراجِعُه كبار تجار دمشق لإتمام معاملاتهم المالية، قرّر مديرُه يومها أن يزورَه في بيته، ليقدّم له هدية رمزية شُكراً لخدماته التي أسداها خلالَ سنوات عمله، لما زاره في البيت رأى بيتاً متواضعاً، وأثاثاً بسيطاً، وقبل أن يغادِرَ المدير قال للموظف المحال إلى التقاعد: الحقيقةُ أنني طلبتُ زيارتك في البيت لأشاهدَ الطوابِقَ التي بنيتها من جرّاء استلام منصبك الوظيفي

الذي كُنْتَ فيه، أريد أن أرى كم جمعت؟ فلم أر منها شيئاً! قال الموظف: والله لولا مراقبتي لله تعالى وإيماني باليوم الآخر، وتفكيري بأن الله سيسألني عن مالي: من أين اكتسبته وفيم أنفقته، لرأيتني في قصرٍ من القصور.

أعظم آداب المرء مع نفسه أن يلاحظ أن الله ناظر إليه، مطلع عليه في جميع الأحوال، فيشتغلَ بذكره بقلبه وحاله دائماً.

الأدب الثاني: **مجاهدة النفس ومحاسبتها**.

إنَّ من طبيعة النفس أنها لا تحب الالتزام بالآداب، فاحملها حملاً على الأدب الرفيع وجاهدها عليه لتتحلى بالفضائل وتتخلى عن الرذائل، وحاسبها على ذلك، فإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وجاهدوها على الفضائل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

فمن الأدب مع الوالدين مثلاً عدم رفع الصوت أمامهما، لكنَّ النفس إذا غضبت لا تنضبط بهذا الأدب، فألزمها غض الصوت أمامهما وحاسبها إن خالفت بالصوم أو الصدقة أو زيادة ركعات قيام الليل.

ومن آداب شرب الماء مثلاً شربه على ثلاثة دفعات، لكنَّ النفس عند العطش تحب أن تعُبَّ الماء عباً، فلا تأذن لها بذلك وجاهدها على اتباع السنة.

ومن الأدب الإسلامي عند النوم: أن تنام على الجنب الأيمن، لكنَّ النفس أحياناً لا تحب هذه الضجعة فتنام على شقها الأيسر أو على البطن.

قد تدعوك نفسك إلى النظر الحرام، أو إلى القهقهة في الضحك أو إلى الكذب مازحاً، أو إلى عدم احترام الكبير؛ فكن في كل ذلك ونحوه مجاهداً لها محاسباً.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]».

قال ميمون بن مهران، قال: «لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه».

ورحم الله البوصيري حين قال:

والنفسُ كالطّفل إنْ تهملْه شبَّ على حبِّ الرضاعِ وإنْ تفطمْه ينفطمِ

وخالفِ النَّفسَ والشَّيطانَ واعصِهما وإنْ هما مَحضَاكَ النُّصحَ فَاتَّهِمِ

الأدب الثالث: **ترك الفضول:**

والمراد به ترك التزيد في الطعام والشراب واللباس والكلام والمنام،... والاقتصار على التوسط والاعتدال.

فمن الأدب مع النفس عدم السرف في المأكل والمشرب والملبس والكلام والمنام ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31] قال الإمام الغزالي: جعل الله فضول المطعم والمشرب في الدنيا سبباً لقسوة القلب وإبطاءِ الجوارح عن الطاعة والصمم عن سماع الموعظة.

ومن الفضول كثرة النوم، فدع عنك ذلك ولا سيما وقت الأسحار فإنه وقت الإجابة.

ومن الفضول كثرة الكلام فيما لا نفع فيه، والبحث عن أحوال الناس والمجادلة معهم، والموفق من حفظ لسانه عن لغو الحديث، وقلبه عن جميع الخواطر، فإن من حفظ لسانه واستقام قلبه انكشفت له الأسرار.

فالفضول يؤثر على نفس صاحبه وقلبه، فيفسد النفس ويقسي القلب، والاعتدال في ذلك كله والتوسط هو المطلوب.

الأدب الرابع: **صحبة الأخيار وترك صحبة الأشرار:**

جاء في الأثر: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: "لا تجالس أهل الهوى فيحدثوا في قلبك ما لم يكن".

فصحبة الأخيار تورث الخير في النفس وصحبة الأشرار تورث الشر فيها، وقد قيل:

الروحُ كالريحِ إنْ مرّتْ على عطرٍ طابتْ، وتخبثُ إنْ مرّتْ على الجيفِ

ومجالس الصالحين هي عافية للنفوس وللقلوب بيقين، لكن لا يشترط ظهور الأثر حالاً، وسيظهر بصحبتهم ولو بعد حين، قال صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ الجليسِ الصَالِحِ مَثَلُ العَطَّارِ، إِمَّا أن يُحذيكَ، وَإِمَّا أن تَجِدَ مِنْهُ ريحا طيبة**» [رواه أبو داود].

أيها الإخوة:

هذه طائفة من الأدب مع النفس، وينفع في اكتساب الأدب الإكثار من ذكر الله ومطالعة الكتاب والسنة وصحبة أهل الأدب.

واذكروا أن الأدب حال الأنبياء والأولياء والصلحاء، فمن أراد أن يلحق بهم فليعمل عملهم وليحذو حذوهم، فإن من جانس جالس.

نسأل الله أن يرزقنا الأدب معه سبحانه، ومع أنبيائه ورسله، ومع سائر خلقه.

اللهم أدبنا بآداب رسولك وخلقنا بأخلاقه وجملنا بصفاته وحققنا بمتابعته.

والحمد لله رب العالمين